# المدائح النبوية.. دين وأدب

بقلم :الشيخ محمد الرابع الندوي
الهند

إن المديح غرض من أغراض الشعر اختاره الشعراء لعدد من الأسباب فمنها أن المادح يريد أداء واجب الشكر على إحسان قام به ممدوحه إليه ومنها طلب فائدة أو إحسان يرجوه المادح من ممدوحه، ومنها إشادة المادح بممدوحه لحسنات يراها فيه مخلصاً ويقدرها تقديراً وقد يكون المدح لعصبية نسب أو وطن أو لغة وثقافة، أو لعصبية دين يريد المادح بمدحه نصرة له، ودعماً.

وفي كل ذلك يسعى المادح إلى اختيار تعبير قوي وعاطفي، ويدعم بيانه بالإطراء وتحبير القول، وغالباً ما يتجاوز في وصفه حد الصدق والاعتدال ويدخل في مبالغة وتنميق.

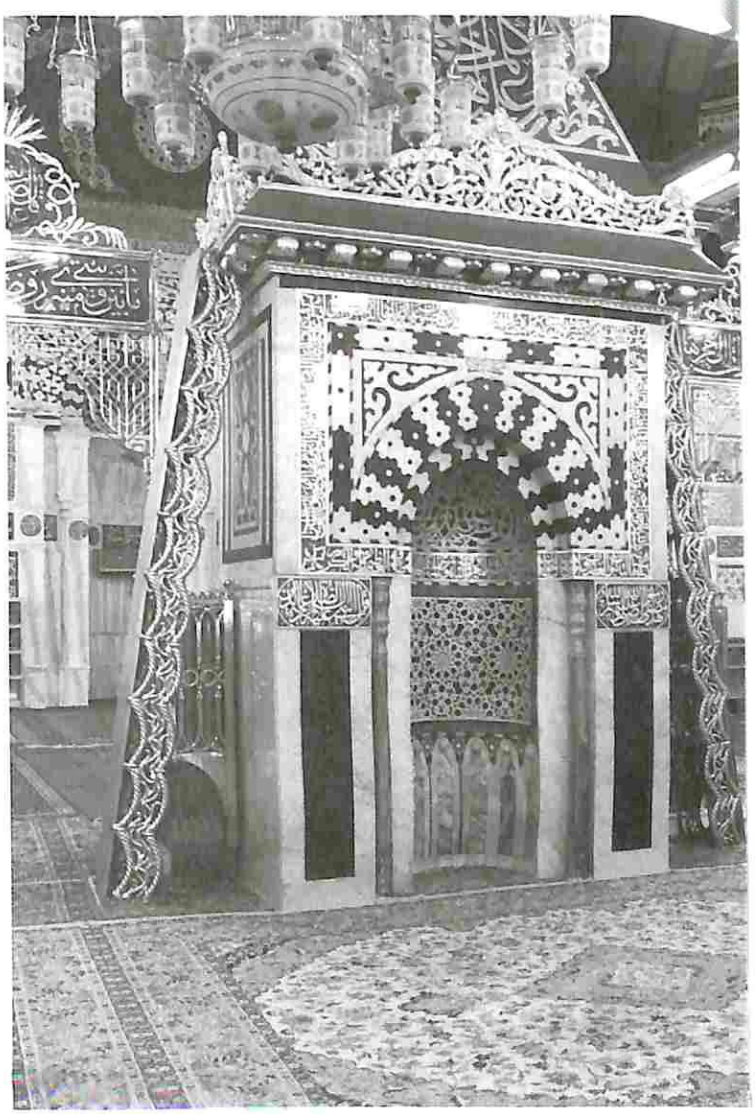

وجرى الشعراء منذ القديم في مديحهم على هذا المنوال، وكان ذلك في مختلف اللغات التي أدى فيها الشعر دوره في المدح ومنها اللغة العربية كذلك، فقد قيل في المدح فيها شعر كثير قبل الإسلام وبعده، ونال المدح تشجيعاً وتقديراً كبيراً من الممدوحين، وذلك بمنحهم الجوائز السخية لمادحيهم ولحفاوتهم بهم. وكان العرب في الجاهلية يرتاحون إلى المديح كثيراً لكونه سبب دعاية وشهرة لمكانتهم وخصائصهم الشخصية، ولحصولهم بذلك على أغراض في الحياة، ومنها تزيين شخصيتهم في نفوس الآخرين.

وتدل على ذلك قصة المحلق مع الأعشى الذي بذل له العطاء ونال منه الثناء.

يقول الأعشى في المحلق:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
على ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها
وبات على النار الندى والمحلق
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه
كما زان متن الهندواني رونق
يداه يدا صدق فكف مبيدة
وكف إذا ماضن بالمال تنفق

وفعلاً كسب المحلق بمدح الأعشى له شهرة ودعاية لشخصه، واستفاد بذلك في تزويج بناته إلى ذوي مكانة من الناس، واستفاد الأعشى هدايا المحلق الجليلة التي فتحت قريحته لمدحه مدحاً مؤثراً بدون النظر إلى موافقة القول للواقع. وتدل على ذلك قصة زهير مع هرم ابن سنان كذلك، ولكن شعر زهير في مدح هرم بن سنان يتسم بالشعر الإنساني أكثر وكانت العلاقة بين المادح والممدوح فيه أكرم وأصفى من غيرها.

كان زهير يمدح هرماً تقديراً لكرامة عمله بإنهائه لحرب ضروس طويلة وأعطاه هرم ما أعطاه اعترافاً لأريحيته لفعل إنساني كريم، وكان يكثر العطاء ويزداد زهير تقديراً له فيكثر المدح له امتناناً لفضله وحياء لكثرة عطاياه.

وقد يكون الهدف من المديح استعطاف الشاعر لرجل محبوب ومحترم، وطلب عفوه كما وقع بين الشاعر الكبير النابغة الذبياني وبين النعمان ملك الحيرة حيث يقول مستعتباً:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني
وتلك التي أهتم منها وأنصب
وبت كأن العائدات فرشن لي
هراسا به يعلى فراشي ويقشب
فلا تتركني بالوعيد كأنني
إلى الناس مطلي به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب
لأنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

هكذا يمدحه الشاعر، ولكن غرضه الرئيسي هو الاستعتاب كما ظهر من أبياته المتقدمة، ومن الاستعتاب المشوب بالمدح هو ما قاله عبدالله بن الزبعرى معذرة عن تأخره في قبول الإسلام ومدحاً للرسول ﷺ.

منع الرقاد بلابل وهموم
والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتاني أن أحمد لامني
فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها
عيرانة سرح اليدين غشوم
إني لمعتذر إليك من الذي
أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
مضت العداوة وانقضت أسبابها
ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والداي كلاهما
زللي فإنك راحم مرحوم
وعليك من علم المليك علامة
نوراً أغرَ وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه
شرفاً وبرهان الإله عظيم
قرم علا بنيانه من هاشم
فرع تمكن في الذرا وأروم

وهذان الاتجاهان في شعر المديح اتجاه إبداء التقدير وتقديم شكر على الفعل الجميل، واتجاه الاستعطاف وإزالة الكراهة والجفاء من نفس رجل كريم محبوب وجهان يتسمان بروح إنسانية كريمة، ويوجد هذان الاتجاهان في شعر قيل في مديح الرسول ﷺ أيضاً على لسان عدد من الشعراء المعاصرين له. وقد قبل رسول الله ﷺ هذا الصنف من المديح وجزى عليه تقديراً للمشاعر الإنسانية النزيهة التي احتوى عليها، فقد تقدم إليه الشاعر المعروف كعب

بن زهير بقصيدته البليغة التي بدأها بقوله في التشبيب بمحبوته:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول

وذلك عندما حضر لدى الرسول ﷺ تائباً عن كفره ومعاداته للإسلام ولرسول الإسلام ﷺ، مستعتباً إياه على انحرافه الماضي فيقول:

أنبئت أن رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة
القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
أذنب ولو كثرت في الأقاويل
إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا زولوا
شم العرانين أبطال لبوسهم
من نسج داود في الهيجا سرابيل

ومع أن الشاعر بنى قصيدته على المنهج الجاهلي السائد في عصره بافتتاحها بالتشبيب الجاهلي، لكنه اختار هذا المنهج لتعزيز المدح في قصيدته وتزيينها بالبلاغة والقوة لا لغرض آخر، ولم يكن الشاعر متعوداً على غير هذا المنهج، ولذلك نالت قصيدته من رسول الله ﷺ الرضا والقبول، وتلقاها أصحابه وأتباعه أيضاً بالقبول والتقدير وأعجب بها عدد من مادحيه ﷺ، فاتبعوا منهجها فصار بذلك صنفاً معيناً في مديح الرسول ﷺ، نجد أمثلته في شعر البوصيري وشوقي وغيرهما.

ولم يكن يقبل رسول الله ﷺ الشعر إلا إذا كان نزيهاً وكريماً في غايته، ولم يكن يقبل مدحه إلامن رجل يريد به جزاء إحسانه إليه، فقد ورد في الحديث الشريف أنه لم يكن يقبل المدح إلامن مكافىء.

ولقد مدحه المسلمون لشعورهم بإحسانه العظيم إليهم، فإنه بلغ إليهم رسالة الله، وكان رحمة عليهم ورأفة قال الله

## ☆ مديح عبدالله ابن الزبعرى وكعب ابن زهير للرسول ﷺ مشوب بالاستعتاب والاعتذار إليه..

تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ (الجمعة)، وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة).

علم المسلمون ذلك ورأوا مقدار رحمته لهم، فقد كانت أكثر من رحمة الآباء والأمهات لأولادهم، ولذلك أحبوه من أعماق قلوبهم وكان ذلك واجباً عليهم أيضاً يقول رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» وذكر الصحابي الجليل الشاعر حسان بن ثابت الأنصاري مشيراً إلى مدى هذا الحب في أحد أبيات شعره:

وإن أبي ووالده و عرضي
لعرض محمد منكم وقاء

وذلك في قصيدة له قام فيه بالرد على هجاء الكفار للرسول ﷺ، وبالذب عن الإسلام:

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات
على أكتافها الأسل الظماء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم
يعين الله فيه من يشاء

فنحكم بالقوافي من هجانا
ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عني
مغلغلة فقد برح الخفاء
هجوت محمداً فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء
فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركا براً حنيفا
أمين الله شيمته الوفاء
أمن يهجو رسول الله منكم
ويمدحه وينصره سواء؟
فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه
وبحري لا تكدره الدلاء.

فإذا تسابق الشعراء المسلمون بعد ذلك لمديح الرسول ﷺ بأعماق قلوبهم فلا عجب فيه، ولذلك نجد أمثلة قوية لمديحه ﷺ في شعر صحابته الكرام في مقدمتهم السادة حسان بن ثابت الأنصاري وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك رضي الله عنهم.

وممن مدحه واعترف بمحامده ومكارم خلقه عدد من الشعراء الذين لم يؤمنوا به، وذلك لأنهم عرفوا فضله وعلو مكانته ﷺ في سيرته وسلوكه، فقد رأوا من صفاته الإنسانية ومكارم أخلاقه ما حببه إليهم مع عدم قبولهم للإسلام الذي جاء به، فقد قام بمدحه ﷺ عدد منهم، إما اعترافاً بمحامده ومكارم أخلاقه وإما استعطافاً له واستعتاباً.

مثلما نجد في شعر الأعشى الذي جاء به ليقدمه إلى رسول الله ﷺ تحية زيارة له، يقول:

ألا أيهذا السائلي أين يممت
فإن لها في أهل يثرب موعدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم
تراحي وتلقي من فواضله ندى
نبي يرى ما لا يرون وذكره
أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغبّ ونائل
وليس عطاء اليوم يمنعه غدا
أجدّك لم تسمع وصاة محمد
نبي الإله حيث أوصى وأشهدا

وكما نجد في شعر قتيلة بنت الحارث القرشية استعطافا لأخيها المعادي للإسلام حيث قالت:

يا راكبا إن الأثيل مظنة
من صبح خامسة وأنت موفق

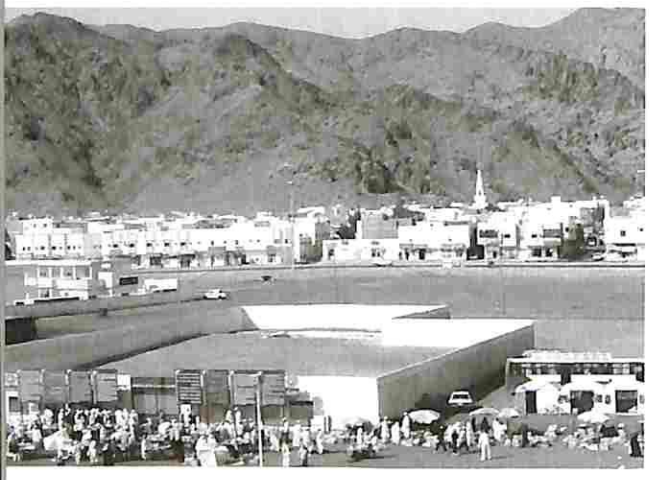

أبلغ بها ميتاً بأن تحية
ما إن تزال بها النجائب تخفق
أمحمد يا خير ضنء كريمة
في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما
مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلينفقنْ
بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة
وأحقهم إن كان عتق يعتق

أما مديح المسلمين للرسول ﷺ فمهما ازداد وأفاض فلا عجب فيه وأنهم إذا بالغوا فيه فلن يكون مغايراً للصواب، لأن الرسول ﷺ حوى من المكارم والمحاسن الظاهرة

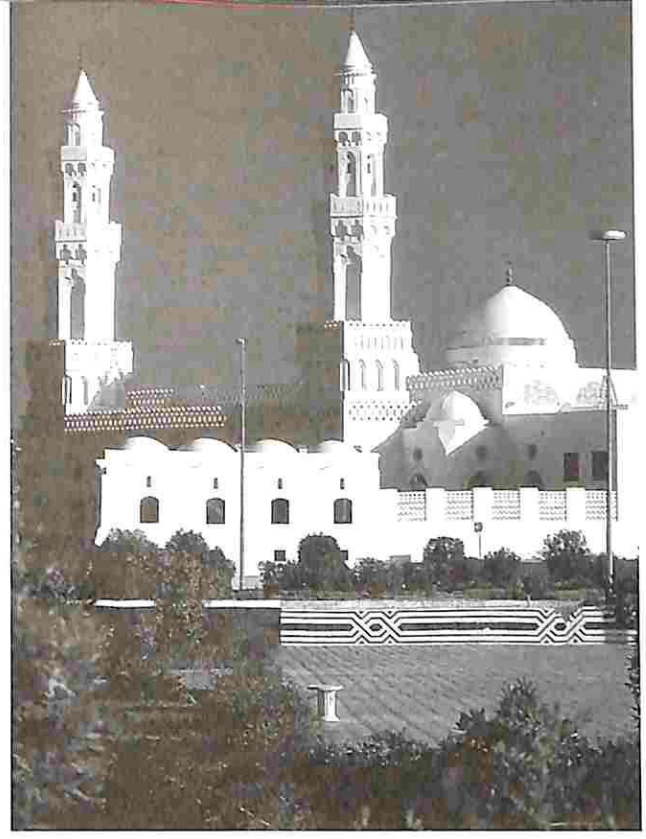

والباطنة ما لا يحوزه غيره من البشر، وكان فيه الجمال والسمو والكرم والصفات التي تجذب نفوس من يلتقون به ويسمعون له.

وقام حسان بن ثابت الأنصاري وأصحابه في شعرهم للمديح له بالدفاع القوي عن الإسلام، والذب عن مقام الرسول ﷺ، وقد أثنى عليهم الرسول ﷺ وأبدى تقديره لسعيهم، وقد قضوا بذلك حق محبتهم وتقديرهم له ص. واستمر بعد ذلك المديح النبوي، وكان يقضي به الشعراء المسلمون حق محبتهم وتقديرهم للرسول ﷺ حتى استقل هذا النوع من المديح غرضاً بنفسه، وتنوع بتنوع قرائح أصحابها وبتغير أساليب البيان الشعري باختلاف الزمان والمكان.

وكانت شخصية رسول الله ﷺ تجمع بين الجمال الإنساني وكريم السيرة، وبين المنزلة والزلفى عند الله، فحوت شخصيته مواضع مدح لم توجد في غيرها من البشر، وحدث عن البحر ولا حرج.

ثم إن الحديث عن شخصيته لا ينحصر في الإشادة بها ومدحها وحده، بل ويدخل في إطار الحب والفداء الذي يتصف برقة النسيب ولكنه يتصف بالرزانة والوفاء، ويدخل فيما تغمره العاطفة الدينية المخلصة لأنه حديث عن الرسول الذي يصلي عليه ربه ويصلي عليه ملائكته، وأمر الله تعالى عباده بالصلاة عليه والدعاء له، وجعل على ذلك مثوبة وأجراً، ودعا رسول الله ﷺ لسيدنا حسان بن ثابت الأنصاري عندما مدحه ودافع عنه. ومن إشادته بالرسول ﷺ في رثائه:

أغـــرّ عـلـيـه لـلـنـبـوة خـاتم
مـن الله مـشـهـود يـلـوح ويـشـهـد
وضـم الإلـه اسـم الـنـبـي إلى اسـمه
إذا قـال في الخـمـس المـؤذنُ: أشـهـد
وشـق لـه مـن اسـمـه لـيـجـلـه
فـذو الـعـرش محـمـود، وهـذا محمد
نـبـي أتـانـا بـعـد يـأس وفـتـرة
من الرسل، والأوثانُ في الأرض يعبد
فأمسى سراجا مستنيراً وهاديا
يـلـوح كـمـا لاح الـصـقـيـل المـهـنـد

وأفاض الشعراء في شعرهم في النبويات إلى معاني الشوق والحب، وذكروا الشوق والحنين، فابتكروا بذلك لوناً يجدر به أن يسمى النسيب الديني، وذلك لأن الرسول ﷺ رجل حبه دين والدعاء له عبادة، ولكنه نسيب مصون عن هفوات تبدر من معالجي شعر النسيب، فهو لكونه حباً لرسول الله موصول بحب الله تعالى، وأن الاعتناء به يحمل معنى من معاني التوجه والإنابة إلى الله، وهو -لكونه شعراً للحب- كلام شعري رقيق شفاف يملأ القلب روعة ويملأ النفس سحراً.

واهتم الشعراء المسلمون بهذا الغرض من الشعر، واستخدموا فيه قريحتهم الأدبية، ورققوا فيه المعاني، وأجادوا فيه التعبير، وأبدعوا فيه الصور، وذلك برزانة وسذاجة حيناً وبرقة وإبداع حيناً آخر، وكانوا كأنهم يتلافون بذلك عما يصدر عنهم من هفوات وشطحات في أعمالهم الشعرية الأخرى.

وكان الإطار الديني لهذا الشعر تابعاً لعقيدة التوحيد التي جاء الرسول ﷺ لتوطيدها وتثبيتها، ولكنه لم يكن إطاراً متحجراً خانقاً يمنع من التنويع والتجديد، وذلك لأن محاسن الرسول ﷺ الظاهرة والباطنة تعطي مجالاً خصباً لصاحب القريحة الوقادة، كما أن حدود معانيها المنوعة رحبة واسعة، فقد كان ميلاده ميلاد نور وسرور، وبشرى نفحة وحبور، وكانت

بعثته بعثة عالم جديد من الخير والسعادة وفلاح الإنسان، وكانت سيرته وأخلاقه دواء شافياً وبلسماً للقلوب الجريحة والنفوس البائسة. وكان وجوده في العالم الإنساني مصدر البهاء والهناء ، ولله درّ الشاعر الكبير أحمد شوقي حيث يقول:

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله
للدين والدنيا به بشراء
وحديقة العرفان ضاحكة الربا
بالترجمان شذيّة غناء
والوحي يقطر سلسلاً من سلسل
واللوح والقلم البديع رواء
نظمت أسامي الرسل فهي صحيفة
في اللوح واسم محمد طغراء
اسم الجلالة في بديع حروفه
ألف هناك واسم محمد الباء
بك بشر الله السماء فزينت
وتضوعت مسكاً به الغبراء
يوم يتيه على الزمان صباحه
ومساؤه (بمحمد) وضّاء
زانتك في الخلق العظيم شمائل
يغرى بهن، ويولع الكرماء
ما جئت بابك مادحا بل داعيا
ومن المديح تضرع ودعاء

ولكن الرسول ﷺ مع سمو مكانته وعظمة شخصيته ومحاسن نفسه وفخامة نبوته كان إنساناً، ولم يكن إلهاً، وهذا هو الذي يفرق بين تصورات الشاعر الإسلامي لرسوله وإمامه، وبين تصورات شاعر في دين آخر لزعماء دينه، وهو أمر لا يخفى على الشاعر الإسلامي، ويجب أن لا يخفى عليه عندما يكتب مدحاً للرسول ﷺ أو يتحدث عن حبه وحنينه إليه.

ولقد جرّ شعر حب الرسول ﷺ إلى حب كل ما يتصل بشخصيته الإنسانية من أرض ميلاده وأرض هجرته وكذلك أصحابه وأولاده ثم مجالات أعماله وسلوكه.

وعبر الشعراء عن كل هذه النواحي، بعضهم خصصوا منها جانباً من الجوانب وحصروا إبداعهم الشعري فيه، وبعضهم عمموا فذكروا جوانب مختلفة.

**☆ كان الإطار الديني لشعر المديح تابعاً لعقيدة التوحيد التي جاء الرسول ﷺ لتوطيدها وتثبيتها.**

أما اختيار أسلوب النسيب في مديح الرسول ﷺ من ذكر محاسنه الزاهرة، ومن الحنين إلى مدينته الطاهرة، وإلى دوربها الحبيبة فقد اهتم به الشعراء المسلمون العرب وغير العرب، غير أن شعراء العجم فاقوا فيه وأكثروا، لأن مساكنهم بعيدة عن وطن الرسول ﷺ ومهد الإسلام، ولبعد الديار تأثير في إثارة عاطفة الحب والحنين، ولهذا النوع من المديح نماذج بليغة.

أما من العرب فنجد نصوصاً رقيقة المعنى في شعر الشريف الرضي الذي تناول الموضوع في بعض قصائده بالرمزية كذلك.

أما في كلام شعراء العجم فله نماذج كثيرة، ولكن ذكرها وتقديم نصوصها سبب لطول الكلام، ويحتاج إلى الترجمة فأتركها هنا.

وظهر فضل هذا الصنف من الشعر في ربط هذه الأمم بنبي الإسلام ربطاً قوياً، فقد أحبوه حباً زائداً، وظهر في نفوسهم التفاني، وشعور الفداء، فزاد ذلك من قوة صلتهم بالإسلام.

وبذلك ما زالت المدائح النبوية تجمع بين طبقات المسلمين على الحب لرسول الإسلام ويجذبهم جذباً إلى الإسلام والفداء له.

وختاماً، فإن موضوع المدائح النبوية موضوع أدبي وديني في وقت واحد، فهو يحمل متعة أدبية في جانب وفائدة دينية في جانب آخر، فكأنه باقة زهر فائح وضعت في محراب مسجد ■